

# مدحت باشا ودوره الإصلاحي في العراق

عادل زين العابدين

دد

من ضمن الإصلاحات التي قام بها مدحت باشا العمل على تركيز السلطة في المركز حيث ركز على المركزية الإدارية في بغداد. ونجح مدحت باشا في إدارة العراق في الفترة التي كانت القوى الأوروبية خاصة بريطانية تعمل فيها على كسب مزيد من القوى على حساب الدولة العثمانية في المنطقة، فضلاً عن تزايد التمردات العشائرية في الفترة ذاتها.

“

ولد مدحت باشا في مدينة اسطنبول في عام 1822، واسمه الحقيقي أحمد شفيق، ووالده علي أفندي أصله من روستشوك في بلغاريا، وكان موظفاً في وزارة الأوقاف. تلقى مدحت باشا دروس القرآن في سن مبكر، وكان يتنقل مع والده حيثما انتقل.

بدأت مسيرته الإدارية في الدولة العثمانية كموظف في سكرتارية الصدر الأعظم (رئيس الوزراء)، وبعدها انتقل إلى ديوان همايون

مجلس كانت ترتبط فيه أهم أجهزة الدولة العثمانية التنفيذية والقضائية) في سن الثالثة عشر، وحصل فيه على اسم "مدحت"، ثم انتقل الى مدينة لوفجا (مدينة في بلغاريا) عام 1835 واستقر فيها مع والده لمدة سنتين، وبعد ذلك عاد إلى إسطنبول، حيث بدأ بتعلم اللغة العربية والفارسية في مسجد الفاتح، ومع استمراره بتلقي تعليمه عمل ككاتب في مجلس الوكلاء (ما يعادل مجلس الوزراء في وقتنا الحالي). وفي وقت لاحق بدأ العمل في الصدارة العظمى (رئاسة الوزراء) في إسطنبول، وأشتهر بنجاح الحلول التي طرحها لجلب الأموال إلى خزانة الدولة. وفي عام 1844 عمل ككاتب تحرير في دمشق وصيدا، وبعده 1846 عمل كاتباً للديوان في قونية وقاسطنلو. بعمر 22 سنة تزوج من السيدة نابعة، وزار مدحت باشا عدة بلدان أوروبية وأطلع على التطور والحداثة التي كانت تعيشها أوروبا آنذاك.

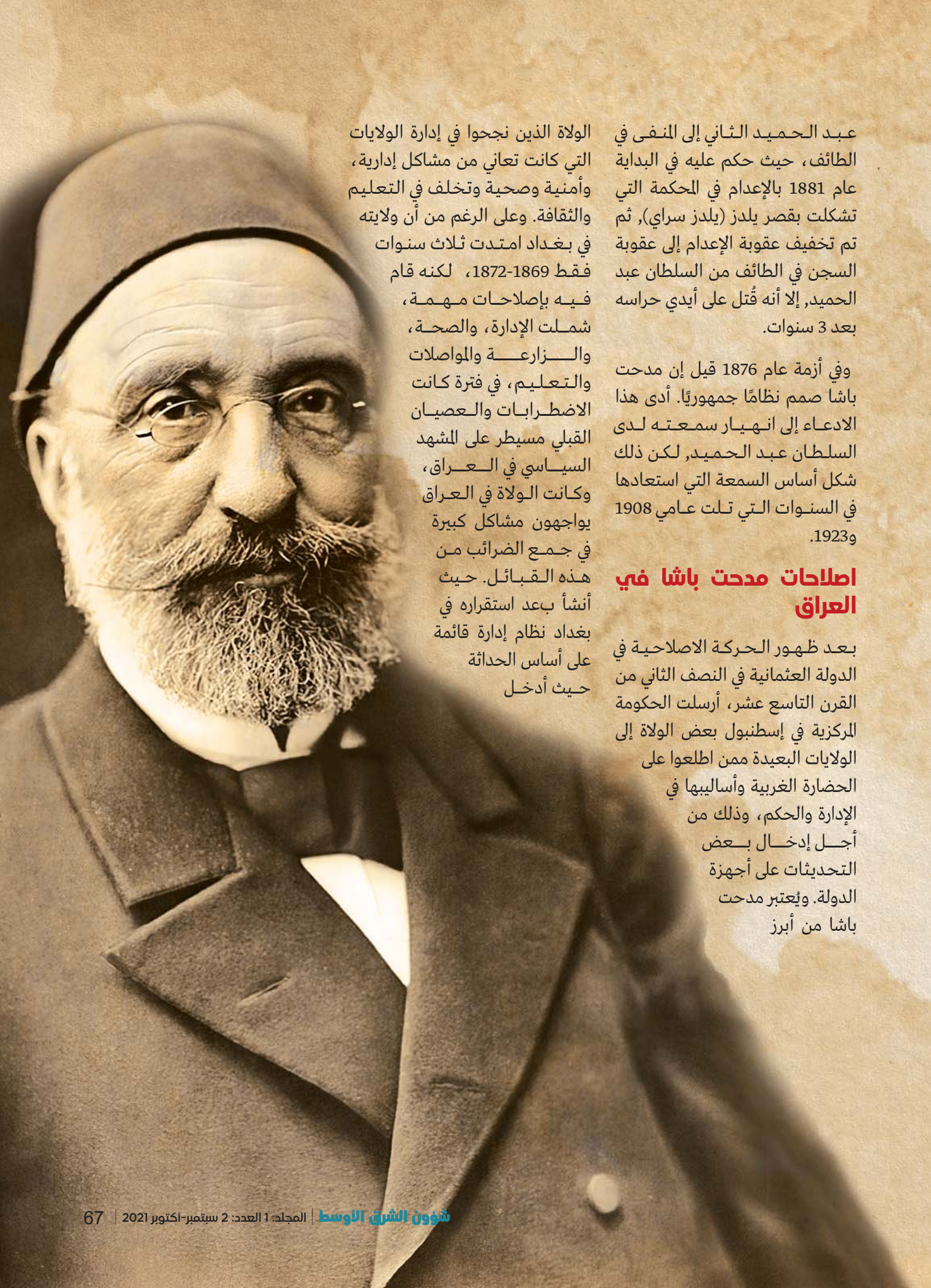
## أدواره ضمن الدولة العثمانية

قام مدحت باشا بإصلاحات مهمة في الدولة العثمانية في مجالات مختلفة وخاصة في مجال الإدارة والتعليم، ولعب دوراً محورياً في إعداد أول دستور للدولة العثمانية، وسمي

أيضاً بـ "أبو الدستور العثماني" عام 1876، الذي كثيراً ما يُشار إليه اختصاراً باسم "دستور مدحت"، حيث كان رئيس اللجنة التحضيرية لدستور 1876. وفي زمن السلطان عبد العزيز أشتهر مدحت باشا بشكل كبير مع اقتراحاته الإصلاحية التي قدمها. وهو أحد الممثلين البارزين للجيل الذي نفذ التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية، ومع ذلك ولكونه محافظاً وغير مستقراً في نظر الكادر الرئيسي الذي كان يقوم بالتنظيمات كمصطفى رشيد، وعلي وكتشجي زاده وفؤاد باشا تم استبعاده من لجنة التنظيمات. وعمل مدحت باشا والياً في تونا وبغداد، وبسبب نجاحه كوالي تم استدعاؤه الى إسطنبول لكن لم يحالفه الحظ كثيراً بها.

أصبح مدحت باشا صداراً أعظم لفترتين وجيزتين في سبعينيات القرن التاسع عشر، ولكن الصراعات السياسية والأزمة المالية المتزايدة في فترة تولية الصدارة. جعلت مدحت باشا يكون أحد القادة الذين أطاحوا بالسلطان عبد العزيز، كذلك أدى دوراً مهماً في الإطاحة بالسلطان مراد الخامس ووصول السلطان عبد الحميد الثاني إلى السلطة. ثم تم إبعاد مدحت باشا في زمن السلطان





الولاية الذين نجحوا في إدارة الولايات التي كانت تعاني من مشاكل إدارية، وأمنية وصحية وتخلّف في التعليم والثقافة. وعلى الرغم من أن ولايته في بغداد امتدت ثلاث سنوات فقط 1869-1872، لكنه قام فيه بإصلاحات مهمة، شملت الإدارة، والصحة، والزراعة والمواصلات والتعليم، في فترة كانت الاضطرابات والعصيان القبلي مسيطر على المشهد السياسي في العراق، وكانت الولاية في العراق يواجهون مشاكل كبيرة في جمع الضرائب من هذه القبائل. حيث أنشأ بعد استقراره في بغداد نظام إدارة قائمة على أساس الحداثة حيث أدخل

عبد الحميد الثاني إلى المنفى في الطائف، حيث حكم عليه في البداية عام 1881 بالإعدام في المحكمة التي تشكلت بقصر يلدز (يلدز سراي)، ثم تم تخفيف عقوبة الإعدام إلى عقوبة السجن في الطائف من السلطان عبد الحميد، إلا أنه قُتل على أيدي حراسه بعد 3 سنوات.

وفي أزمة عام 1876 قيل إن مدحت باشا صمم نظامًا جمهوريًا. أدى هذا الادعاء إلى انهيار سمعته لدى السلطان عبد الحميد، لكن ذلك شكل أساس السمعة التي استعادها في السنوات التي تلت عامي 1908 و1923.

## اطلاعات مدحت باشا في العراق

بعد ظهور الحركة الإصلاحية في الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أرسلت الحكومة المركزية في إسطنبول بعض الولاية إلى الولايات البعيدة ممن اطلعوا على الحضارة الغربية وأساليبيها في الإدارة والحكم، وذلك من أجل إدخال بعض التحديثات على أجهزة الدولة. ويُعتبر مدحت باشا من أبرز





بغداد، إذ صدر عددها الأول في الثلاثاء الموافق السادس عشر من حزيران/ يوليو 1869، واستمرت تصدر بانتظام تسعة وأربعون عاماً حتى سنة 1917. وكانت تصدر باللغتين العثمانية والعربية، وبصفحتين لكل لغة منهما.

وفي زمن الوالي مدحت باشا تم التركيز على المدارس الحديثة، وحث الناس على دخول هذه المدارس، حيث إن التعليم التقليدي كان سائداً آنذاك، ومع المدارس التي أسست في المناطق الحضرية ارتفعت نسبة المتعلمين من 1% في عام 1869 إلى 10% في 1917. وأثمرت تلك المرحلة الانتقالية تحديث المجتمع العراقي، فعشية الحرب العالمية الأولى كان غالبية ضباط الجيش والموظفين المدنيين في العراق من العراقيين، ولم يكن ذلك مألوفاً في الحقب السابقة. ويُذكر أن جامعة بغداد الحالية

أدى إلى قيام انتفاضات عشائرية. وفي مجال التعليم قام مدحت باشا بإصلاحات مهمة في قطاع التعليم والثقافة، حيث يُعد من طليعة الولاة العثمانيين الذين حرصوا على إدخال الطباعة الحديثة إلى العراق، فجلب مطبعة حديثة من باريس، وهي أول مطبعة ميكانيكية تدار بالبخار وتنتج 3500 ورقة في الساعة، وأطلق عليها مطبعة الولاية، وأدت هذه المطبعة دوراً كبيراً في خلق الوعي الفكري والاجتماعي في العراق، وأوكل إدارتها إلى طلاب مدرسة الصنائع. وفي فترة ولاية مدحت باشا زُودت المدارس بالكتب الحديثة المطبوعة، وبدأت الأفكار تنتشر من خلال الصحف والسالنات الرسمية. وصدرت جريدة الزوراء والتي تعد أول جريدة أسبوعية صدرت في العراق بعد مرور شهرين على تعيين مدحت باشا والياً على

نظام الطابو (التسجيل العقاري) الذي سهّل استيطان القبائل وجمع الضرائب. ومع إدخال نظام الطابو أصبحت الأراضي الزراعية تسجل باسم الأفراد، وبذلك انتقل نظام الملكية الزراعية من المشاع إلى نظام الملك الخاص، وكانت الدولة قبل نظام الطابو تمنح الأراضي الزراعية إلى العشائر وكانت ملكيتها جماعية. وفي ظل إدارة مدحت باشا في عام 1869 تم تقسيم العراق إلى 10 سناجق (محافظة)، وأصبحت الوحدات الإدارية سناجق وقائمقاميات (أقضية) ونواحي، حيث لا زال هذا النظام يطبق في العراق.

ووجه مدحت باشا بإصلاح المؤسسة العسكرية فوجد العراقيين بدلاً من المماليك والأتراك، وأدخل الخدمة الإلزامية عن طريق القرعة، لكنه فشل في المناطق العشائرية التي رفضت التجنيد الإجباري، الأمر الذي





أسست كأول مدرسة في العراق من طرف مدحت باشا، بعد ذلك تحولت إلى إحدى أعرق الجامعات العراقية وتخرج منها قادة وإداريين في مختلف الفترات من عمر الدولة العراقية.

وكانت المواصلات إحدى الجوانب التي حظيت باهتمام مدحت باشا لما لها من أثر كبير في التجارة والنقل وتوحيد البلاد، فاهتم بالمواصلات النهرية والبحرية والبرية، وطور شركة الإدارة النهرية العثمانية، واشترى بواخر جديدة كبيرة لتبحر بين البصرة وإسطنبول عبر قناة السويس، وبنى المحطات اللازمة لتزويدها بالوقود ومصنعاً لإصلاح السفن. أما على البر فقد أسس شركة لتسيير الترامواي وتجره الخيول بين بغداد والكاظمية لنقل المسافرين والبضائع، وأفتتح المشروع سنة 1871. ومن ضمن الإصلاحات التي قام بها مدحت باشا العمل على تركيز السلطة في المركز، حيث ركز على المركزية الإدارية في بغداد. ونجح مدحت باشا في إدارة العراق في الفترة التي كانت القوى الأوروبية خاصة بريطانية تعمل فيها على كسب مزيد من القوى على حساب الدولة العثمانية في المنطقة، فضلاً عن تزايد التمردات العشائرية في الفترة ذاتها.

في المحصلة يمكن القول إن مدحت باشا سعى للتحديث في جوانب لها تأثير طويل في المجتمع العراقي، لكنه لم يتمكن من إنجاز عدد من المشاريع بسبب قصر مدة حكمه وقلة الامكانيات ووجود بعض المعارضة له من بعض السياسيين في العاصمة

الحديثة التي تأسست في 1921 كانوا خريجو المدارس التي أسسها مدحت باشا، وبعد ذلك التحقوا بالكليات العسكرية في إسطنبول. كذلك الحال في بلغاريا حيث إن الكتب التاريخية التي تُدرس في بلغاريا، تذكر أنه لو ظل مدحت باشا والياً في بلغاريا، لربما لم تخرج بلغاريا عن سيطرة الدولة العثمانية. ■

إسطنبول. فضلاً عن معارضة القوى المحلية المحافظة في العراق والتي وقفت ضد التغيير، فاستقال عام 1871 م وغادر العراق، ولم يتمكن من إكمال الكثير مما بدأه، وأهملت بعض مشاريعه المنجزة، ولربما لو كان استمر كوالي في العراق سيكون المنطقة شكلاً مختلفاً في عدة جوانب مهمة، خاصة خلال فترة الحرب العالمية الأولى والمشهد الذي ظهر بعدها، حيث أن كل رجال الدولة العراقية الذين لعبوا دوراً مهماً في تأسيس الدولة العراقية

عادل زين العابدين: عادل زين العابدين باحث من العراق، يعمل حالياً في قسم دراسات العراق في مركز أورسام.